تقدمة

الأخت أوجيني أبو زيد

مقالات شرقيّة ومسكونيّة

المطران لطفي لحّام

دكتور في العلوم الشرقية الكنسية

مؤسس مجلة "الوحدة في الإيمان"

١٩٩٢

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

الافخارستيا علامة الوحدة؟

أم طريق إليها؟

في تموز ١٩٦٩ اشتركت بمؤتمر أو لنقل بلقاء علمي مسكوني دار حول موضوع "الافخارستيا علامة الوحدة". كان الجو علميًا، لكنّه طال نواحٍ عمليّة نالت المشتركين في الصميم، منها تجديد الليترجيا، أو القداس، والمشاركة في الأقداس. وقد بلغ النقاش الذروة عندما دار حول المشاركة في الأقداس. فشعرت أنّ الأمر يهم الحاضرين بالدرجة الأولى، لكنّه طُرح بطريقة علمية في قاعة الاجتماعات، وبطريقة عملية في الحلقات الحرة وفي الأحاديث الفردية. وقد دلت اللقاءات الحرة أن السؤال القائم اليوم في ضمير كل مسيحي واعٍ هو هذا: هل الافخارستيا علامة الوحدة، أم الطريق إليها؟ لكن التعبير عن هذا التساؤل وفهم فحواه الحقيقي يختلف عند فئات المسيحيين.

الواقع

الموقف الرسمي اللاهوتي بهذا الصدد واضح المعالم عند الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت ولا مجال للإفاضة بشأنه هنا. وهو يختصر بأن مختلف فئات المسيحيين ترفض أن تكون شركة الافخارستيا طريقًا إلى الوحدة[١]، ولابد من شروط مسبقة لقيام مثل هذه الشركة بين الإخوة المنفصلين كنسيًا.

لكن الموقف العملي يختلف ويتخطّى الرسمي، كما اتضح حتى الآن في ظروف كثيرة أبرزها المشاركة في الافخارستيا بين مسيحيين من مختلف الكنائس في فرنسا وهولندا وألمانيا وأميركا الجنوبية وفي بلادنا أيضًا. في بعض هذه البلاد وفي ظروف خاصّة اشترك في القداس وفي المناولة كهنة وقسس ومؤمنون ينتمون إلى كنائس لا تزال في حال انفصال رسمي الواحدة عن الأخرى.

١ــ *الوحدة عام ١٩٦٩.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

من التاريخ

قبل أن أُحاول تعليل هذا الواقع، أحب أن أُلقي نظرة إلى التاريخ. لا مجال هنا لدرس تاريخ قضية المشاركة في الأقداس وفي الافخارستيا بنوع خاص.

١ــ القداس يدعى في التاريخ الافخارستيا. وهي عبارة يونانية تعني الشكر. وذلك لأن الصلاة الكبرى والأساسية التي كانت تتم في أثنائها تقدمة ذبيحة الخبز والخمر هي صلاة شكر مستفيضة. ويدعى الاشتراك بالافخارستيا "الشركة" (وباليونانية Koinonia) ولذا فإن سرّ الافخارستيا هو سرّ الشركة، وهو علامة الشركة القائمة بين المجتمعين للافخارستيا والمسيح من جهة وبين المجتمعين فيما بينهم من جهة أخرى.

٢ــ الافخارستيا تفترض الشركة إذًا، والعبارتان متلازمتان: فلا افخارستيا إلا بين من تجمعهم الشركة، ولا شركة حقة في الافخارستيا إلا على أساس الوحدة بين المشتركين فيها.

٣ــ الحرم من الشركة الكنسية يفترض ضرورة الحرم من الافخارستيا.

٤ــ ذهب بعضهم في العصور السابقة قديمًا إلى نشل الخبز المقدس من فم بعض من لا يرغبون الشركة معهم، أو لا يستحقونها. وبالعكس ذهب البعض الآخر إلى إعطاء الخبز المقدس بالقوة لإظهار الشركة مع شخص آخر. بالطبع هذا أمر شواذ وحدوثه نادر لكنّه يُبرز أهمية الشركة بالمناولة، بالخبز والخمر، إنها علامة الشركة الكنسية والوحدة. بحيث أن من كان يشترك بالمناولة كان يُعَدّ من الجماعة ومن لا يشترك فيها أو يُحرم منها، كان يُعتبر خارج الجماعة.

٥ــ في الألف المسيحي الأول لم يكن أي خلاف قائمًا بين المسيحيين حول سرّ الافخارستيا. ومع ذلك فإن الشركة في الافخارستيا كانت تُعطى أو تُمنع بقطع النظر عن إيمان الأفراد أو الجماعات بهذا السرّ بالذات. فكانت تمنع الشركة بسبب خطيئة جسيمة، أو خلاف عقائدي (مثلاً حول الثالوث الأقدس بين الآريوسيين والكاثوليك أو حول شخص المسيح بين الذين قبلوا مجمع خلقدونيا والذين رفضوه) أو بسبب خلاف كنسي إداري.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

٦ــ وبالتالي كان الحرم من الافخارستيا ومن الشركة واسطة لردع الإنسان المنشق أو الخاطئ، ولدفعه في طريق الوحدة أو تجديدها مع جماعته الكنسية.

٧ــ ومع ذلك فقد كان من الطبيعي أن تكون الافخارستيا مشتركة بين المسيحيين، ومن العرض العارض أن تكون غير مشتركة، لأنها تعني الشركة وتفترضها. كما أنّه من باب العرض الحامل على الشك والريبة أن نُدعى مسيحيين ولا تكون لنا شركة في سرّ المسيح.

أكتفي بهذه النقاط التي تتعلّق بتاريخ الألف المسيحي الأول، ولا أتعرّض لتطوّر الأمر في الألف الثاني، وعلى أثر الشقاقات اللاحقة التي قامت بين المسيحيين شرقًا وغربًا، وبعد الخلاف بين البروتستانت والكاثوليك على تفسير سرّ وحقيقة وجود المسيح في الافخارستيا. فإن هذا الخلاف العقائدي الأخير قد زاد سببًا آخر إلى أسباب منع الشركة في الأقداس، بين البروتستانت والكاثوليك.

التساؤل القائم اليوم

لقد كان اللقاء الذي اشتركت به جميلاً جدًّا وأخويًا وذا طابع عائلي شعرنا فيه أننا كلنا حقًا واحد في المسيح. ومع ذلك فإن شعورًا سيئًا وغريبًا رافقني مدة اللقاء ولا يزال يؤلمني اليوم وأنا أخط هذه السطور. وسببه أننا كنا كل يوم نجتمع باكرًا "للشركة وكسر الخبز" ولم نكن نشترك به، بل كان كل واحد يأكل خبزه الخاص وكأننا أعداء أو غرباء... لقد شاركني بهذا الشعور كثير من الحضور وخاصة بين صفوف الشباب.

إن هذا الواقع المؤلم في لقائنا المسكوني - وهو يتكرر في كل لقاء مسكوني- هو الذي يُحدث هذا التململ الكبير اليوم في الحركة المسكونية، وهو سبب ضعفها وعدم فعاليتها، وهو الذي يبعث بعض الشك في صدقها ومدى إخلاص القائمين عليها، ويدفع إلى اليأس منها، كثيرًا من الشباب الذين يريدون أن يعيشوا إيمانهم في شركة كاملة مع إخوتهم الشباب.

إن التباين الفاضح القائم بين موقفنا في لقائنا هذا المسكوني، وبين موقف أولئك الذين ضمّتهم لقاءات مسكونية أخرى وغير مسكونية واشتركوا فيها معًا بالافخارستيا، يرتكز على نقطة انطلاق

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

مختلفة. فالتساؤل الرسمي القائم اليوم والذي تعالجه الحلقات المسكونية - وكأنّها تدور في حلقة مفرغة — هو هذا: هل الافخارستيا علامة الوحدة أم طريق إليها؟ وإذا كان الحرم من الافخارستيا سابقًا واسطة لردع المنشق عن شقاقه، ولا رجاعة إلى الوحدة، ألا يمكن أن يكون اليوم الأمر بالعكس، فتصبح الشركة في الافخارستيا سبيلاً وطريقًا إلى الوحدة؟. إن الجواب الرسمي على هذا السؤال ينفي أن تكون الافخارستيا واسطة وطريقًا إلى الوحدة. بل هي علامة الوحدة الكاملة والحاصلة، وهي قمتها وذروتها. وهذا هو أيضًا الموقف التقليدي في كل الكنائس.

تحليل الواقع

لكن الواقع الذي تكلّمت عنه يخالف هذا الموقف الرسمي. والخلاف لا يقوم فقط على المشاركة في الأقداس أو عدم جوازها، بل يتعدّى هذا الأمر. فالخلاف قائم في السؤال نفسه. فهو لا يدور حول إذا ما كانت الافخارستيا طريقًا إلى الوحدة أم علامة وجودها. وإن ما يدفع الشباب اليوم — وتلك الفئات التي أشرنا إليها — إلى المشاركة في الافخارستيا ليس اعتبارهم أن هذه الشركة طريق إلى الوحدة، وليس تصرّفهم جوابًا على السؤال الأساسي الذي يطرحه اليوم القائمون على الحركة المسكونية.

إن تصرّف هذه الفئات في المشاركة في الأقداس نابع من اعتقاد هؤلاء أنّهم حقًا حاصلون على الوحدة مع أترابهم، وأنّه لا شيء يفصلهم، ولا فوارق عقائدية تباعد بينهم، وخاصةً أنّه لا خلاف في عقيدتهم في حقيقة يسوع في الافخارستيا، ولو اختلفوا أو بالحري اختلف اللاهوتيون في تفسير هذه الحقيقة في سرّ الافخارستيا، هذا السرّ الذي يبقى سرًّا مهمًّا جهد المجتهدون واللاهوتيون في إجلاء غوامضه وسبر أبعاده الإلهية.

هذا التفسير لتصرّف بعض هذه الفئات يتحقق بنوع خاص في علاقات الشركة بين الأرثوذكس والكاثوليك في بلادنا. إذ إن الحقيقة التاريخية نفسها تُظهر بجلاء أن لا خلاف عقائدي جوهري بينهم، و لا خلاف بالحري بشأن الافخارستيا. وقد تبيّن ذلك في لقائنا المسكوني، عندما عرض الدكتور الشماس زافيريس العقيدة الأرثوذكسية بشأن الافخارستيا. فظهرت وحدة الإيمان بين الكاثوليك والأرثوذكس في سرّ الافخارستيا، ولو شدد الشرقيون على بعض النواحي، مثلاً وخاصةً على استدعاء الروح القدس.

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

وجهٌ آخر لتحليل واقع الشركة في الافخارستيا: هو ما استخلصته بنفسي من خلال أحاديثي مع بعض من مارسوا هذه الشركة. إن هذه الشركة بين هؤلاء الأفراد المنتمين إلى كنائس مختلفة ليس فقط تنبع من اعتقادهم الواحد، بل تمد جذورها إلى قرارة نفوسهم، وتطال اختبارهم الروحي. فإنها تقوم على الاقتناع الداخلي، والاختبار الوجودي والروحي المشترك، الذي ينشأ بين هذه الفئات المتجانسة على إثر اجتماع، أو دراسة مشتركة أو عمل مشترك أو جهاد موحد في سبيل قضية يجتمع كل الفرقاء تحت لواء النضال عنها. وإذ ذاك يشعرون أنهم حقًا واحد، وأنهم متحدون وحاصلون على الوحدة في الواقع والاختبار الداخلي والوجداني والتفاعل الروحي. وهذا هو السبب الذي قدّمه أولئك الذين مارسوا هذه الشركة في الافخارستيا في فرنسا، على إثر حوادث إضرابات أيار الدامية سنة ١٩٦٨. فإنهم - على حدِّ قولهم - قد جاهدوا في سبيل القضايا عينها، وتوحّدوا في أهدافهم، ووجدوا في الشركة في الافخارستيا القمة في وحدتهم المسيحية الروحية.

إن هؤلاء جميعًا عندما يشتركون في الافخارستيا الواحدة بالرغم من انتسابهم إلى كنائس منفصلة رسميًا وكنسيًا، فإنهم يشعرون أنهم حقًا واحد في المسيح، ويؤمنون إيمانًا واحدًا مشتركًا بالمسيح الذي يشتركون بسرّه في الافخارستيا، كأنما يشتركون بمائدة واحدة.

لغة غير لغة اللاهوتيين

قال البابا يوحنا الثالث والعشرون - البابا "الطيب الحبوب" على حدِّ تعبير الايطاليين- قولاً مأثورًا: "يجب إقصاء اللاهوتيين عن محادثات الوحدة!.." بالطبع هي نكتة وطرفة! ولكنها واقع في كثير من الأحوال، وتحمل في طيّاتها كثيرًا من اختبارات ومثائل التاريخ في علاقات الكنائس. وهذه الطرفة تتحقق فيما نحن بصدده. فإن لغة اللاهوتيين اليوم بالنسبة للافخارستيا وللوحدة تختلف عن لغة الكثيرين من المؤمنين الساعين إلى الوحدة. سؤال اللاهوتيين ينحصر في هذه العبارة: هل الافخارستيا والشركة فيها طريق إلى الوحدة، أعني واسطة ووسيلة؟ أم أنها علامة وحدة حاصلة؟

وبالتالي هل تجوز الشركة في الأقداس (في المناولة) للحصول على التقارب والوحدة؟ أم يجب بالحري العمل أولاً لأجل الوحدة- عن طريق اجتماعات ومؤتمرات، ولقاءات...- والاتفاق على نقاط الخلاف

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

بشأن العقيدة عمومًا و الافخارستيا خاصةً، ويجب الحصول على هذه الوحدة، وتحقيقها بين الفرقاء بطريقة رسمية، وإذ ذاك تجوز المشاركة في الأقداس (في المناولة) كعلامة للوحدة ودمغ لوجودها؟

هذه هي لغة اللاهوتيين: إنها تقوم على تساؤل مزدوج ذي حدين. هذا التساؤل غائب تمامًا عن فكر الفئات الداعية إلى الشركة. إنهم لا يتساءلون مطلقًا إذا كانت الشركة طريقًا ووسيلة أم علامة وجود الوحدة. بل إنهم ينطلقون من الواقع: إنهم متحدون، فلماذا لا يشتركون في المناولة؟ فالمنطق معكوس عند اللاهوتيين وعند هذه الفئات. يتساءل اللاهوتيون: هل تجوز المشاركة في المناولة كطريق إلى الوحدة؟ ويقول أولئك: نحن واحد فلماذا لا نشترك بالمناولة معًا؟ وبذلك يشبهون ذلك الخصي الذي بشره الرسول فيلبس بالمسيح وهو جالس معه في المركبة. فقد سأل الخصي الرسول قائلاً: هوذا ماء فما المانع من أن أعتمد؟ فأجابه فيلبس: إذا كنت تؤمن بكل قلبك يجوز!.. و لم ينتظر الرسول برهانًا آخر!

وربما نجد أحسن تعبير لموقف هذه الفئات ما قاله القديس بولس:"كل ما ليس من الاعتقاد فهو خطيئة". فإن هؤلاء يعتبرون أن الوحدة حاصلة بينهم جوهريًّا وفي واقع حياتهم واختبارهم، بحيث أنهم يعتقدون أن ابتعادهم عن الشركة فيما بينهم هو خطيئة. وهم يشبهون ما عبارته بالفرنسية (Objecteurs de Conscience) أو "المحتجّون بداعي الضمير". هذه العبارة تنطبق على فئة من المواطنين يرفضون الخدمة العسكرية التي تُخالف ضميرهم لأنها تهيئة للحرب وتُنافي الدعوة إلى السلام بين الشعوب.

هذا هو مؤدى سلوك هؤلاء الذين يشتركون بالمناولة فيما بينهم بالرغم من انتمائهم إلى كنائس مختلفة، مخالفين بذلك نظم كنيستهم وتوجيهاتها بهذا الشأن. وهم يعتقدون أن الوحدة حاصلة فعلاً فيما بينهم. وهم لا ينتظرون حلول وإقرار الوحدة النظرية اللاهوتية إذا صح القول، عن طريق الدراسات والمجامع بالاحتفال والمصافحة. إنهم لا ينتظرون حدوث شيء مماثل لما حدث مثلاً (ولو رمزيًا فقط) في ٤ك٢ سنة ١٩٦٤ في القدس، أو في روما سنة ١٩٦٥ (عند إعلان رفع الحرومات بين روما والقسطنطينية) أو في اسطنبول ثم روما سنة ١٩٦٧ (لدى لقاء البابا بولس السادس والبطريرك المسكوني

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

أثيناغوراس الأول)... إنهم لا ينتظرون مجمعًا مسكونيًا لا كاثوليكيًا ولا أرثوذكسيًا و بروتستانتيًا، لأجل ممارسة الشركة في الافخارستيا.

بالطبع كل هذه الاجتماعات والأحداث تشق طريق الوحدة، ولكنها في نظر هؤلاء لا يمكن أن تعيق وحدتهم الوجودية الحاصلة فعلاً، و لا يمكن أن تكون هي فقط نقطة انطلاق سيرهم الوحدوي، فإن الوحدة الأساسية تحققت بالنسبة لهم.

الركب الوحدوي

هنا يتبادر إلى الخاطر اعتبار ينبع من واقع تاريخ الكنيسة عندما نتأمّل من جهة في هذه الأحداث التي أشرنا إليها أكثر من مرة في هذا المقال وحاولنا تحليلها، وعندما نقرأ من جهة أخرى ما تقوم به اللجان المسكونية المختصة وما أصدرته مثلاً أمانة السرّ لاتحاد المسيحيين (من قبل الكنيسة الكاثوليكية). إلا أننا نرى أن الخطر قائم هنا أيضًا بأن تصبح الكنيسة متأخرة في لحاق الركب الوحدوي؟ أليس الخطر قائمًا على الحركة المسكونية بأن لا تعود "حركة" بل تتشنج في جمود المنظمات الفكرية القائمة بذاتها، لها دوراتها وأنظمتها وبروتوكولاتها... وربما قلّ ما يشعر القائمون بها بألم الشقاق وقلما يصبون إلى واقع الوحدة؟ أليست الحركة المسكونية معرّضة للاكتفاء بما أحرزته، وأن تتوقف عند هذه التحركات والمناورات الوحدوية والمساعي "الطيبة" والنوايا"المخلصة" والتآخي و"طيبة القلب والسريرة والطوية"؟ ألا تستحق، ربما، أن يُوجّه إليها الكلام الذي قاله الله مخاطبًا الشعب اليهودي بلسان النبي:"لقد سئمت محرقاتكم وذبائحكم هي رجس لدي... لأن قلوبكم بعيدة عني!"؟

أليس الخطر بأن لا تكون "الحركة" المسكونية حركة، و"مسيرة"، بل تصبح منظمة ابتليت بمرض الاكتفاء والتنظيم، وعزفت عن تحقيق خطوات أخرى، وعن السير نحو الوحدة؟ وليس الخطر قائمًا بأن نسير على طريق الوحدة، ولكن الخطر في أن نحب هذه المسيرة، ونبقى أبدًا على الطريق! وهذا ما كتبته في سجل ضيوف القصر الذي استضافنا مدة لقائنا المسكوني: جميل أن نسير على طريق الوحدة، شرط أن لا نبقى إلى الأبد على الطريق!...

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

لا نشكو بعض الشباب بعدم الصبر، و لا ندعهم إلى الصبر!.. فليست القضية (المشاركة في الأقداس والوحدة) بالنسبة إليهم قضية صبر أو نفاده... فقد أصبحوا أبعد من مفهوم "الصبر ريثما تتحقق الوحدة". إنهم أصبحوا في واقع الوحدة. ولذا فهم لا يفهمون لغة من يدعوهم إلى الصبر، ليس لأنهم لا يريدون أن يصبروا ريثما تتحقق الوحدة، بل لأنهم لا يترجون الوحدة، ولا حاجة بهم إلى الصبر (إذ إن الإنسان يصبر ريثما يتحقق له مراده) إذ لا موضوع لصبرهم، لأنهم حققوا الوحدة وهي واقع في حياتهم ووجدانهم واختبارهم الحياتي، وشعورهم الموحّد بالنسبة لأمور كثيرة في الحياة، و لا يرون مبررًا لاختلافهم بشأن الافخارستيا خاصةً والمعتقد عامةً. (بالطبع هذا القول ينطبق على الشباب المؤمن الذي يهمّه أمر الوحدة).

اللاهوت والواقع

نحن أمام أمرَين:

١ــ هناك مسألة لاهوتية: هل المشاركة في الافخارستيا طريق إلى الوحدة ووسيلة للحصول عليها، أم هي علامة الوحدة الحاصلة فعلاً؟... أعني هل يجوز المشاركة في الأقداس (المناولة) لتهيئة الوحدة ولإذكاء الشعور بوجوبها ولأجل استعجالها... أم يجب أن نحقق الوحدة نظريًا وعمليًا، وعلى الأثر نشترك معًا في الافخارستيا؟

٢ــ وهناك واقع الأحداث الكثيرة: عمليًا كثيرون ممن ينتمون إلى كنائس مختلفة يشتركون معًا في الافخارستيا.

إن القضية اللاهوتية قائمة بقطع النظر عن الواقع العملي. كما أن الواقع العملي، ليس محاولة لحل القضية اللاهوتية. لكنه ينطلق من اعتبار آخر. وهو ليس تحديًا لموقف الكنائس الرسمي وللاهوتيين، ولا استباقًا لحل لم يوجد بعد... ولكنه أيضًا أمر مستقل قائم بذاته، ويستوحي غير مبادئ. فهو لا يعطي جوابًا فيما إذا كانت الشركة الافخارستيا طريقًا أم علامة، بل ينطلق من مبدأ آخر: هو شعور المشتركين في الافخارستيا - وهم شرعًا وتاريخًا ينتمون إلى كنائس وطقوس وطوائف مختلفة - إنهم حقًا واحد

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com

بالمحبة والإيمان والعقيدة - خاصة بالنسبة للافخارستيا – ولذا لا يرون مانعًا لشركتهم في الافخارستيا الواحدة.

علامة الأزمنة! هكذا يمكن أن نصف هذا الواقع الذي يجب أن يثير اهتمام كل من يعمل في سبيل الوحدة، وخاصة رجال الاكليروس الذي يجب أن يعتبروا أن هؤلاء الذين يشتركون في الافخارستيا بقطع النظر عن موقف كنائسهم الرسمي هم أيضًا من "القطيع الأمين"، لا بل هم واعون، ربما أكثر من غيرهم، وينشدون الوحدة، ولو عن غير طريق اللاهوتيين، وعن غير طريق المسكونية السلطانية الرسمية!

أليس علينا أن نفتح آذاننا وقلبنا وفكرنا - بتواضع – لكي نفهم "لغة مسكونية" تختلف عن لغة "رجال" الحركة المسكونية الجالسين وراء مكاتبهم يخططون للوحدة، ولكن ربما بمعزل عن ركب الحياة "السريع"! وعن واقع الحياة اليومي! هذا الواقع الحياتي الذي يجمع ليس فقط المسيحيين من مختلف الطوائف في معترك الحياة، ولكن أيضًا بين مسيحيين وغير مسيحيين، لا بل أيضًا بين مؤمنين وملحدين أو لا دين لهم...

يعتبر اليوم المسيحيون في بلادنا أن الشك الكبير بين الطوائف أن لا نعيّد الفصح معًا. وهذا حق. ولكن أليس الشك أيضًا أكبر بأن لا نشترك بالمناولة معًا؟ وما فرحتنا أن نعيّد الفصح معًا، ونحن لا نشترك معًا بالحمل الفصحي المذبوح حبًا بنا، وهو الذي قال:"وأنا إذا ارتفعت عن الأرض (أعني عندما أُصلب وأُقدّم قربانًا) جذبت إليّ الجميع؟"

PDF created with pdfFactory trial version www.softwarelabs.com